آثار الحرب الكبرى ونتائجها

١٩١٤ — ١٩٢٤

اطلعنا على هذه المقالة الممتعة في عدد دسمبر الماضي من مجلة «التاريخ الجاري» الاميركية وهي من قلم الاستاذ كارلتن هايز استاذ التاريخ في جامعة كولومبيا بنيويورك وقد تجاوز فيها عن الاسهاب في ذكر الحرب وسيرها والمؤتمرات الكثيرة التي عقدت بعدها الى بسط النتائج الكبيرة التي نجمت عنها وكان لها اثر باقٍ في سير العمران فآثرنا نقلها الى قرّاء المقتطف بتصرّف قليل

لقد انقضت عشر سنوات كانت مفعمة بالاضطرابات والشدائد والمحن. فيها اضطرمت اعظم حرب في التاريخ فتطاحنت الامم مدى اربع سنوات حتى اشرفت الحضارة على الخراب والدمار ثم تلتها ست سنوات والامم تتخبط في الظلام على شفا جرف هارٍ ثم اخذت تلتفت الى السلم تستشف نور التعمير والاصلاح والتقدم

ولا شك ان الحرب الكبرى انتجت نتائج كبرى. خاضت غمارها ست عشرة دولة من الدول التي كانت مستقلة قبل نشوب الحرب وثلاث دول استقلت اثناءها او بعدها فوقف خمس عشرة منها معاً في الجانب الواحد والاربع الاخرى اصطفت قبالتها في الجانب الآخر. واكتفت احدى عشرة دولة غيرها باعلان الحرب دون الاشتراك في القتال او كان لها نصيب قليل منهُ. ولم يبق من الدول المستقلة سوى تسع عشرة دولة على الحياد وكلها كانت من الدول الصغيرة الضعيفة

جند الحلفاء نحو اربعين مليون جندي وجندت المانيا وحلفاؤها نحو عشرين مليوناً فقتل من هذا الجمع الكبير نحو عشرة ملايين وشوّه نحو عشرين مليوناً عدا الذين لم يشتركوا في القتال وماتوا ذبحاً او مرضاً او جوعاً. سالت الدماء خلال الحرب كالانهار وبددت الثروة حتى كان الرباح كانت تسفيها وزادت الديون على حكومات الدول المتوسطة اي المانيا وحلفائها نحو ٩ آلاف مليون جنيه وزادت ديون الحكومات في فرنسا وانكلترا واميركا وايطاليا وروسيا نحو ضعفي ذلك اي نحو ١٨ الف مليون جنيه وجُبيت الاموال الطائلة من الافراد والشركات لمواصلة الحرب. ورافق ذلك نقص في الانتاج لان الرجال في معظم البلدان الصناعية والزراعية فصلوا

عن اعمالهم المنتجة ليشتركوا في الحرب اما مباشرة في القتال او غير مباشرة في معامل الذخيرة . وكانت الاساطيل والجيوش فوق ذلك كله تخرّب وتدمّر معالم العمران

فماذا كسبت اوربا بل ماذا كسب العالم من الحرب الكبرى ؟ ما هي النتائج التي اشتراها الناس غالية بالدماء والاموال ؟ ان في الاجابة عن مسائل من هذا القبيل ابلغ العبر التي يلقيها علينا تاريخ العقد المتصرم

لا ريب في ان اهمّ ما التفت لنظر الناس بعد عقد الهدنة سعي الساسة والمالين لمعالجة المشاكل الاقتصادية الكبرى. فاختلال التوازن في ميزانيات معظم الحكومات وانحطاط قيمة النقد ومشكلة التعويضات والضرائب الجركية والعمل على حصر الحركة البولشفية في روسيا وتحويل الصنائع والمعامل من ادوات حرب الى ادوات سلم كانت ولا تزال اكبر الحوائل في سبيل اعادة المياه الى مجاريها في الانتاج العام والتجارة الدولية . ولكن الانسان بطبعه يجنح الى العمل اذا لم تشغله الحرب او شاغل غيرها عن ذلك وسبب ما نراه من التحسن القليل في احوال العالم الاقتصادية بعد انتهاء الحرب هو هذا العمل البطيء

فلقد تحولت المعامل من صنع الذخيرة الى صنع المواد التي يحتاج اليها الناس في معيشتهم السلمية وتخلّى زعماء البلاشفة عن معظم المبادىء المتطرفة التي جاهروا بها اولاً واعترفت بحكومتهم اكثر الحكومات الكبيرة عدا حكومة الولايات المتحدة . وحلّت المعاهدات التجارية محلّ الاختلافات الجركية بين دول اوربا المتوسطة . ودخلت مشكلة التعويضات التي اعيت الساسة والخبراء في دور جديد بعد انشاء تقرير دوز الشهير يبشر بحل هذه العقدة السياسية الاقتصادية . ومع ان النقود في معظم البلدان لا تزال كثيرة التقلب نرى انها آخذة في الاستقرار على اساس ثابت وقد تساوت الايرادات والنفقات في ميزانيات بعض الدول

اثر الثورة الروسية

على ان ثلاثة انقلابات كبيرة سيكون لها اثر في العمران اكبر من اثر التعويضات وتقلب اسعار النقود وما رافقها من الاضطرابات المالية التي تلت الحرب وهذه الانقلابات هي الثورة الروسية وتغير حالة الفلاح الاوربي ومصير اشتراكية ماركس[1]

(١) كارل ماركس اشتراكي المانيّ يعد اكبر زعيم للاشتراكية (١٨١٨ — ١٨٨٣)

حدثت الثورة الروسية سنة ١٩١٧ بعجلت الحرب حدوثها ولكن اسبابها ابعد اصولاً من السنوات العشر التي حصرنا بحثنا فيها الآن. كذلك ستكون نتائجها وآثارها موضوعاً للبحث والاستقصاء في الاجيال المقبلة. ولقد بقي رجال حكومة السوفيت في روسيا رغماً عن المقاومة العنيفة التي قام بها معظم الدول الكبيرة اكثر مما بقيت كل جماعة سياسية تسلمت زمام الاحكام في البلدان التي قاومتها. ولا نتكر ان روسيا لم تستطع ان تنتصر على العالم بنشر مبادىء البولشفية فيه ولكنّ العالم لم يستطع ان ينتصر عليها بعد. وقد تُركت الثورة الروسية الآن لتسير في المجرى الطبيعي كاعظم تجربة اجتماعية في هذا العصر

اما حالة الفلاح الاوربي فتبعث على الرضى والامل الكبير. فقد زاد عدد المُلاّك من الفلاحين في اوربا زيادة كبيرة وكانت المحاصيل الزراعية قد زادت اسعارها اثناء الحرب فلم تتأثر الزراعة بالفوضى الاقتصادية التي تلت الحرب والهدنة كما تأثرت الصناعة. وساعد هبوط اسعار النقد كثيرين من الفلاحين في معظم ممالك اوربا المتوسطة على ان يوفوا ما عليهم من الديون وما على اراضيهم من الرهونات بنقود الورق الرخيصة. وحملت الضرائب العالية على الاملاك في بلاد الانكليز كثيرين من كبار الملاّك على بيع اراضيهم لصغار الفلاحين باسعار متهاودة. وجاءت هذه النتائج ذاتها في روسيا على اثر الثورة الروسية. واهتمت الحكومات في رومانيا وبعض الممالك الجديدة في اوربا التي نشأت بعد الحرب الكبرى بسن القوانين لتوزيع الاملاك الواسعة التي يملكها افراد قلائل من الاغنياء او الاشراف على الفلاحين الصغار. وقد سار هذا العمل في اوربا حتى نستطيع القول ان العمران الاوربي سيقوم في الجيل القادم على اركان متينة من ملك الفلاح فاذا سار هؤلاء الفلاحون المتحررون على مبدإ التعاون في تنظيم امورهم كان لهم شأن كبير في وقاية الحضارة الاوربية وحفظها من الاضمحلال

ولا يخفى ان الاشتراكية حرّكت اعمالاً كباراً من جهة واثارت مخاوف عظيمة من جهة اخرى. فقد انقضى سبع سنوات ومقاليد الامور في روسيا بيد جماعة من الاشتراكيين. ولم ينحصر نفوذهم في روسيا بل كان لهم شأن كبير في الثورات التي حدثت في المانيا والنمسا والمجر سنة ١٩١٨ وظهرت آثار مساعيهم في ايطاليا وفرنسا وانكلترا. ولكن رغماً عن ذلك يبدو لنا ان اشتراكية ماركس قد مُزقت تمزيقاً

وانقسم اتباعها الى فريقين. ففريق من الاشتراكيين الّف احزاباً اشتراكية نظامية وسعى للتعاون مع حكومات الطبقات المتوسطة ونادى بتطرف البلشفيين وعاد فاحيا مبادىء المؤتمر الاشتراكي الدولي الثاني . والفريق الآخر يتألف من البلاشفة في روسيا والاقليات الشيوعية في مختلف الممالك الذين وجهوا سهام ملامهم الى الدمقراطية السياسية ونادوا بوجوب تسليم الحكم للعمال أو مندوبيهم وانتقدوا بشدة المؤتمر الاشتراكي الدولي الثاني وانشأوا في موسكو سنة ١٩١٩ مؤتمراً اشتراكياً سموهُ « المؤتمر الدولي الثالث » تمييزاً لهُ عن « الدولي الثاني » . وكلا الفريقين قد خالف تعاليم ماركس الاصلية فالبلشفيك يريدون أن يتوسلوا بالعنف والقوة لبلوغ مآربهم وهذا ينافي مبادىء ماركس السياسية . والاشتراكيون المعتدلون يدعون الى التساع والاتفاق مع الاحزاب الحاكمة فيؤخرون بذلك تحقيق مبادىء ماركس الاقتصادية

على ان الاشتراكية في اتجاهها الحالي المعتدل تكاد تقنع العالم بوجوب تأييدها رغم خروجها عن مبادىء مؤسسها الاكبر. فمعظم الحكومات قد وسعت نطاق اعمالها وحددت الحرية الفردية الى حدّ ما اثناء الحرب وبعدها وصارت مركزية تدير معظم شؤون البلاد من مقرها في العاصمة ولم تعد تسمع في اوربا بالاستقلال الاقتصادي الفرديّ وترك الامور تجري مع التيار . واذا بحثنا عن الذين ادخلوا هذا التعديل الكبير في النظام الاوربي وجدنا انهم مشترعون وساسة دمقراطيون لا من اتباع ماركس الذين لا يحيدون عن مبادئه قيد شعرة. ان نظام الفردية يزول امام الاشتراكية الجديدة وقد تكون الدمقراطية السياسية مقدمة للدمقراطية الصناعية

تقرير المصير

ايدت الحرب وما تلاها من معاهدات السلام مبدأ « تقرير المصير » حتى صار جزءاً من القانون الدولي العام . ونظار الساسة في خريطة اوربا فاعادوا رسمها مسترشدين بالمبادىء القومية التي اعلنوها من قبل . فانتثر عقد اربع من الدول الكبيرة التي لم ترتكز سابقاً على مبدإ الاتحاد الجنسي في تكوينها وهي الامبراطورية النمسوية المجرية والمانيا وروسيا وتركيا. وقام على انقاضها سبع دول جديدة مستقلة هي بولونيا وتشكوسلوفاكيا وفنلندا واستونيا ولاتفيا ولتوانيا والحجاز عداجمهوريات المانيا والنمسا والمجر وتركيا ومناطق الانتداب المختلفة في الشرق الادنى . وقد تمّ

توحيد ايطاليا ويوغوسلافيا ورومانيا واليونان بما ضُمّ الى كلٍّ منها من البلدان التي يحتُّ اهلها الهابصلة الجنس. واعيدت الالزاس واللورين الى فرنسا وجانب من مقاطعتي شلزويغ وهلشتين الى الدنمارك فحلّ باعادتها عقدتان قوميّتان كانتا في مقدمة مشاكل اوربا السياسية . وصارت المانيا بعد ان فصلت عنها البلدان التي يقطنها دنماركيون وفرنسويون وبولونيون دولة تتألف من عنصر جنسي واحد للمرة الاولى في التاريخ. كذلك صارت روسيا دولة روسية بحتة تتحد اتحاداً خارجيًّا مع دول قومية اخرى كاوقرانيا وجورجيا وغيرهما فيتألف من ذلك « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » وصارت جمهورية المجر للمجريين فقط وتركيا للاتراك ولو سمح للنمسا التوتونية ان تتحد مع المانيا لاصبح معظم اوربا المتوسطة عدا سويسرا منظماً على مبدإي القومية وتقرير المصير

وادى الاعتراف بمبدإ تقرير المصير في اوربا الى انقلاب كبير في مختلف الامم خارج اوربا وكان لهُ شأن كبير في سياستها . وارتفعت الاصوات في انحاء الامبراطورية البريطانية تطلب تقرير المصير وابى الاتراك الا تنقيح معاهدة سيڤر ووصل صدى هذه الاصوات الى فارس وسيام والصين فحرك فيها المسلمين والمسيحيين والبوذيين على السواء لا فرق بين الاصفر والاسود والابيض. واقلق اليابانيين في كوريا والاميركيين الى حد ما في بحر كريب والفيليبين . وحرّك في ارلندا جماعة السن فين وثورة سنة ١٩١٦ في دبلن وما تلاها من الحروب غير المنتظمة بين انكلترا وارلندا . وقد اضطرت حكومة الانكليز ان تعلن استقلال مصر وان تمنح الدول العربية درجة من الحكم الذاتي وان توسع نطاق هذا الحكم في الهند . كذلك قد توترت بسببها العلاقات الودية بين الفلمنغ والوالون في البلجيك وبعثت دنمارك على الاعتراف باستقلال جزيرة ايسلندا التام فلا يصلها بالدنمارك الا ن سوى الاعتراف عملك واحد على كليهما. وقد اثارت في الولايات المتحدة وجهاً جديداً لاعمال الكوكلكس كلان فصار اعضاؤها يناهضون السود فيها وسعوا لتقييد المهاجرة بقيودها المشهورة

وسيجيء في العدد القادم ما بقي من كلام الاستاذ هايز على « النزعة الامبراطورية الجديدة » و « الدمقراطية السياسية » و « جمعية الامم » كآثار من آثار الحرب الكبرى